المحاضرة الحادية عشرة

محطات في مضمار الشعر المعاصر

يعد لائقا انتهاك حرمته بالمضغ و الإجترار، على الرغم من المحاولات التجديدية المغلفة بغلاف شفاف من النظرات والتجارب الرومانسية و البرناسية والرمزية. وأما بعد الخمسينيات، فكان لابد للشعر العربي من التأثر بالعوامل التي طرأت على الشعوب العربية بعد حرب عالمية أسفرت في جملة ما أسفرت، من وجه جديد لعلاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالوجود. وفيما يختص بالعالم العربي، فإنه تحرر من السيطرة الأجنبية وازداد انفتاحه على الاتجاهات المعاصرة. فأدى هذا الانفتاح إلى مفهوم جديد للقصيدة، كان مجهولا من قبل الشعراء والنقاد. فاكتسب الشعر أغراضا تتجاوز الأغراض التقليدية وأشكال التعبير عنها، لأن المضمون والشكل لا ينفصلان. وتجسد هذا المفهوم الجديد بحركة شعرية عرفت بحركة الشعر الحديث، وتكشفت في أواخر العام 1956 بمحاضرة ألقيتها في الندوة اللبنانية موضوعها " مستقبل الشعر العربي "، دعت إلى اعتماد الأسس العريضة الآتية :

1- التعبير عن التجربة الحياتية، على حقيقتها، كما يعيها الشاعر بجميع كيانه- أي بعقله وقلبه معا.

2- استخدام الصورة الحية – من وصفية أو ذهنية- حيث استخدم الشاعر القديم التشبيه و الاستعارة والتجريد اللفظي والفذلكة البيانية، فليس لدى الشاعر كالصورة القائمة في التاريخ أو في الحياة حولنا، وما يتبعها من تداع نفسي يتحدى المنطق ويحطم القوالب التقليدية.

3- ابدال التعابير والمفردات القديمة التي استنزفت حيويتها بتعابير ومفردات جديدة مستمدة من صميم التجربة ومن حياة الشعب.

4– تطوير الإيقاع الشعري العربي وصقله على ضوء المضامين الجديدة، فليس للأوزان التقليدية أية قداسة.

5– الإعتماد في بناء القصيدة على وحدة التجربة والجو العاطفي العام، لا على التتابع العقلي والتسلسل المنطقي.

6– الإنسان في ألمه وفرحه، خطيئته وتوبته، حريته وعبوديته، حقارته وعظمته، حياته وموته، هو الموضوع الأول والأخير. كل تجربة لا يتوسطها الإنسان هي تجربة سخيفة مصطنعة لا يأبه لها الشعر الخالد العظيم.

7– وعي التراث الروحي والعقلي العربي، وفهمه على حقيقته، وإعلان هذه الحقيقة وتقييمها كما هي، من دون خوف أو مسايرة أو تردد.

8– الغوص إلى أعماق التراث الروحي والعقلي الإنساني، وفهمه وكونه والتفاعل معه.

9– الإفادة من التجارب الشعرية التي حققها أدباء العالم. فعلى الشاعر الحديث أن لا يقع في خطر الانكماشية، كما وقع الشعراء العرب قديما بالنسبة للأدب الإغريقي.

10– الامتزاج بروح الشعب لا بالطبيعة. فالشعب مورد حياة لا تنضب. أما الطبيعة فحالة آنية زائلة.

كانت هذه الحركة الجديدة حركة خطيرة، لا بقدر ما أبدعته من شعر، بل بقدر ما مهدت – عن وعي أو عن غير وعي– لمرحلة اللقاء العظيم المنشود بين لغة الكتابة ولغة الكلام. كان لابد أن تعطى اللغة العربية القديمة المكتوبة فرصتها الأخيرة لتبرير وجودها : هل بإمكانها، مع الإبقاء على

أصولها وقواعدها، ولكن بالإعتداء على قوالبها التعبيرية الجامدة وأوزانها الشعرية البالغة درجة القداسة، إن تحرر الشاعر الحديث من إستعارة عقلية زميله الشاعر القديم للتعبير عن حياته الحديثة ؟.

وإذن، فحركة الشعر الحديث مرحلة فاصلة أولى أزاحت كثيرا من العقبات. يكفي أنها حررت الشاعر من الأساليب الموروثة وأفهمته أن الشعر ليس هو الكلام الموزون المقفى، بل هو التعبير الشخصي الفريد عن رؤيا الشاعر الشخصية الفريدة. فالشاعر، وإن كان يعيش لأجل الآخرين، فإنما يموت –كإنسان– عن نفسه ولنفسه.

ويكفي حركة الشعر الجديد أيضا أنها رفعت من مقام الشعر، فلم يعد للذم والمديح والرثاء والغزل والفخر والوعظ والحكم والطرب، بل صارت مهمته –كأرقى فن إنساني– الكشف عن أسرار الحياة وإظهار الانسجام بين ما في الوجود من تناقض. وصارت مهمته أيضا النفاذ إلى ما وراء واقع الحياة لرؤية ملامح الأمل والخلاص.

فأمام جدار اللغة تقف حركة الشعر الحديث. أما قدرتها على اختراقه، فرهن بإيماننا أن طليعة الغد انبثاق من طليعة اليوم، هكذا إلى المنتهى.

مآخذ نقدية في مسيرة الشعر الحر :

يأخذون على الشعر الحديث صعوبته، وهذا مأخذ صحيح، ويخلصون إلى القول أنه خلط في خلط، وهذا قول مردود.

للصعوبة التي يلقاها القارئ، كما قال ت.س. إليوت، أسباب أولها العجز عن التعبير بوضوح. وثانيا جدة القصيدة، أي خروجها عن المألوف. وثالثا الاعتقاد المسبق بأن القصيدة الحديثة عسيرة الفهم، فيضع القارئ نفسه في جو معيق. فلو خلصت نيته وبلغ به المراس في قراءة الشعر حد النضج، لأبى أن يقيم وزنا للفهم –على الأقل في قراءته الأولى للقصيدة. فالقصيدة الحديثة الناجحة يجب قراءتها مرارا وفي محبة. أنها كالمرأة المرأة، لا تأخذ منها إلا بقدر ما تعطيها. ورابعا إهمال ما تعود القارئ أن يجده في القصيدة، فيحار ويجهد في البحث عنه. وهكذا يبطل التعاطف بينه وبين القصيدة.

ويأخذون على الشعر الحديث الابتذال. فهم يحسبون أن حرية الشاعر في التصرف بالأوزان والقوافي التقليدية تستبيح صناعة الشعر، فينفتح المجال أمام الأدعياء.

هذا المأخذ مردود لسببين : أولا أن الصرامة في تطبيق علم العروض الخليلي ما صانت الشعر القديم من تسلل الأدعياء، بل وجدوا فيه ميدانا واسعا للصول و الجول على خيولهم الخشبية. وثانيا أن تمتع الشاعر الحديث بحرية التصرف في الشكل لا يجعل صناعة الشعر يسيرة كما يتصور أتباع القديم. فاستخدام الحرية أصعب من السير على نظام مفروض. ذلك أن الحرية تتطلب المقدرة على تحمل المسؤولية، وأما النظام المفروض فلا يتطلب غير الانقياد والطاعة. فإذا خلا الشاعر التقليدي من المضمون، لجأ إلى القوالب الجاهزة يزخرفها وينمقها بالألفاظ الطنانة و التعابير البيانية الماهرة. ولكن الشاعر الحديث لا وسيلة له يلجأ إليها إلا الفشل أو السكوت.

ويأخذون على الشعر الحديث أنه بدعة شكلية غايتها تحطيم العمود الشعري والقضاء على النغم الشعري وإشراق العبارة. والحقيقة أن الشاعر الحديث لا غاية له إلا التعبير بحرية، مع الحفاظ

على جميع خصائص الشعر، عن تجاربه الكيانية. فالعمل الشعري في نظره عمل شخصي فني يهدف إلى خلق ما يراه واجب الوجود. وحريته يحدها الفن الذي يفترض الانتظام والانسجام. فهو مهما بدا لنا قريبا من الفوضى، لا يلبث وهو الشاعر الأصيل أن يوجد أشكاله الجمالية.

على أن العقلية الجامدة المتحجرة لا ترتاح إلا في مناخ العبودية للمعروف والمألوف. فالمغامرة بعيدة عن طبعها. وهي لا تعي ما يجري حولها، فتصبح مرتعا للفراغ. يهزها الزمن، فتفتح عيونها البلهاء ثم تعاود الشخير، إلى أن يجيء يوم تجد فيه من يجرها إلى الهلاك.

فما الشعر الحديث شكلا وحسب، فسواء جرى على النمط التقليدي أو خرج عليه، تبقى حداثة التجربة، أي حضوره في هذه اللحظة لا في زمن مضى من عصور التاريخ.

ويأخذون على الشعر الحديث أجنبيته أو شعوبيته، ومناقضته لعقلية القارئ العربي. وهم لو وعوا هذا، لأدركوا أنه حكم ظالم على هذه العقلية لا على الشعر الحديث.

فالشعر الحديث هو شعر هذه الآونة من تطور الشعر في العالم، من تطور الحياة في العالم، من مفهوم الإنسان المعاصر لطبيعة الخلق الشعري. فهل يعني كلامهم هذا أن عقلية القارئ العربي تناقض هذا كله ؟ هل هي عقلية لا تنسجم، بالضرورة، إلا مع الشعر الموروث ؟

يقولون : أنها طبيعة اللغة العربية، ويعنون أن للغة العربية صفات لا تشارك فيها سائر اللغات. فلو عقلوا لأدركوا أن اللغة لا تنفصل عن الإنسان، وأنها أداة تتطور بتطوره، وأن صفاتها الأساسية واحدة في اللغات جميعا. فالإدعاء بأن اللغة العربية نسيج وحدها يعني أن صاحبها نسيج وحده أيضا. وفي هذا جهل فأضح لا يعرفون أنهم ينتهون إليه.

طفولة الشعر المعاصر :

كثير من الشعر العربي المعاصر لا حديث هو ولا جديد، فالحداثة لا تكون بإتباع أشكال تعبيرية شعرية معينة، بل باتخاذ موقف حديث تجاه الحياة، ومنها تجاه القصيدة.

ومن أسف أن يعنى معظم شعراء الحركة الجديدة وشعراؤها بمظهرها الخارجي، حاسبين أن ميزتها الكبرى هي الخروج على الأوزان التقليدية، باعتماد التفعيلة لا البيت الشعري ميزانا موسيقيا أو بإعتماد وزن داخلي خاص.

من السهل تقليد المظهر الخارجي، غير أن هذا التقليد ينفضح أمام العين البصيرة. فمعظم الذين يكتبون الشعر اليوم على أنه شعر حديث أو جديد، إنما يكتبونه بعقلية قديمة لا حداثة فيها ولا جدة. فماذا يعرف هؤلاء عن قضايا العصر الذي نعيش فيه ؟ وماذا يعرفون عن مجاري النقد الأدبي المتفاعلة المتراكمة في التراث الإنساني عبر الأجيال ؟ وماذا يعرفون عن التجارب الشعرية العريقة التي انتهت إلى ما يطبع الشعر بطابعه المعاصر ؟ بل ماذا قرأوا من إنتاج الشعراء الكبار منذ بندار إلى روبرت لويل ؟

الشعر جهد إنساني خلاق، أخذناه بعنف أو بجهل أو بلهو. وهو فن جميل لا غاية له إلا تعزيز الجمال في الأرض، كالموسيقى والنحت والعمار والرسم، ولا هم له إلا أن يبهج النفس البشرية ويزيد في غناها الإنساني. هدفه الوحيد أن يعيد خلق الأشياء من خلال تجربة الشاعر الشخصية، فتصل إلى الآخرين عن طريق العاطفة والبصيرة.

فعلى المرحلة المقبلة من تطور الشعر العربي أن تكون مرحلة تركيز وتجاوز لما تحقق في السنوات الماضية من فتوحات : في هذه السنوات العشر دللنا على الطريق : حرية الشاعر في التعبير كيفما

يشاء عما يشاء، والقضاء على قداسة الشكل الموروث، وإغناء القاموس الشعري بألفاظ جديدة، وتفجير طاقات اللغة العربية ودفن موتاها، والدعوة إلى أن الحياة تتغير وإننا نحن تغيرنا.

6/- أضواء على المسيرة :

الشعر لغة، أو هو حياة اللغة. فلولاه لا تتجدد اللغة ولا تنمو ولا تبقى. فهو دائما يخلقها " كتابيا " ويخلقها المتكلمون بها " كلاميا "، وبين الخلق الكتابي والخلق الكلامي صلة حميمة جعلت عزرا باوند وت.س. إليوت وسواهما من أقطاب الشعر والنقد المعاصرين أن يقولوا بضرورة اقتراب الشعر في الأخص من الكلام المحكي و الإستفادة منه حتى في الإيقاع.

أما في لغتنا العربية فلا يتم هذا التفاعل إلا ببطء كثير، لأن لنا لغتين تطورت أحداهما من الأخرى واتسعت الهوة بينهما إلى حد الإنفصال. فهل ينهض العقل العربي إلى ردم الهوة ؟ وهكذا يصير لنا أدب حقيقي بلغة حقيقية تعكس الواقع من كل وجوهه، وخصوصا الوجه اللغوي الذي هو الوجه العقلي الإنساني.

الأفكار والعواطف هي مادة خام لكتابة القصيدة. فالشاعر الذي يكتبها كما هي لا يكون مبدعا ولا خلاقا، بل لا يكون شاعرا.

ففي هذا العصر تنازل الشعر عن دعواه في حمل المعرفة أو تقييم الأشياء أو التعليم والوعظ والإرشاد، واكتفى بأن يكون فنا جميلا أداته اللغة، آخذا من الموسيقى إيقاعها، ومن العمار نظامه وتوازنه وانسجامه، ومن النحت والرسم تجسيدهما وتصورهما الموضوع بالواقع الملموس والمنظور. وبالإضافة إلى ذلك فرضت عليه الكلمة الإقتراب من الفلسفة في الغوص إلى أعماق الوجود والخروج منها برؤيا أساسية شاملة تتعدى الواقع والظاهر إلى الحقيقة والكنه.

ولذلك صارت ثقافة الشاعر من حيث اتساعها وعمقها في الحضارة الإنسانية ضرورة لفنه أكثر من أي وقت مضى. ولعل هذا يفسر صعوبة الشعر الحديث وغموضه وما نتج عنهما من انكفاء عند القراء. ولعله يفسر أيضا خموده في العالم كله.

و لا شك أنه لا ينعم بحب المغامرة واكتشاف المجهول غير فئة محظوظة من الناس، فإذا كانوا شعراء حقيقيين تجددوا وتغيروا مع الحياة ووسائل التعبير عنها. هؤلاء هم الأنهار الجارية إلى مصبها، لتعود إلى الأرض مطرا يبعث الخصب بعد جفاف، أما الآخرون فمستنقعات آسنة تميت ولا تحيي.

قد نظن أن ما تغيرنا إليه أسوأ مما كنا عليه. ولكن إذا كان التغير حقيقة لابد منها لأنها في طبيعة الحياة، كان ظننا آنيا وفارغا. فكل تغيير خير من الجمود، وعلينا أن ننظر إليه من زاوية الحياة ككل، لا من زاويته الخاصة الضيقة. فالحياة تأخذ وتعطي، وتجرح وتداوي، وتظلم هنا وتعدل هناك، إلا أنها في كل ذلك تحافظ على التوازن الذي هو في أساس نظام الكون كله.

إذا كان الإيقاع ضرورة في الشعر، فضرورته لا تعني أن يكون تقليديا موروثا أو مفروضا على الشاعر. فللشاعر ملء الحرية في إيجاد إيقاعه الخاص به، وهذا ما يميز المفهوم الحديث للشعر عن المفهوم القديم الذي يصر على نوع معين من الوزن لا يكون الشعر شعرا إلا به. وللشاعر الحديث أن يستخدم الوزن التقليدي، ولكن كإيقاع بين غيره من الإيقاعات الشعرية. وله أن يتلاعب في الوزن الموسيقى التقليدي كما يشاء لخدمة القصيدة.

إن حركة الشعر العربي الحديث، بعد منتصف هذا القرن، حركة ثورية تطورية تنبع من داخل تراث الأدب العربي لا من خارجه، وهي حقيقة تفرضها اللغة العربية وثقافتها. فالحركة نهضة هدفها

رفع النفس العربية إلى مستوى الحداثة، ولا صلة لها بالصراع المألوف بين الجديد والقديم أو بين الشباب والشيوخ. فهي قديم يتجدد مع الحياة، شأنها في ذلك شأن الولادة الجديدة.

فنحن لا نجدد لأننا قررنا أن نجدد، بل لأن الحياة تتجدد فينا، فالمستقبل لنا، ولا حاجة بنا إلى صراع مع القديم. وإذا كان من صراع، فهو مع بعض دعاة الحركة الحديثة الجاهلين وشعرائها المزيفين.

ينفعل الشاعر بتجربة ما فيندفع إلى كتابة القصيدة. فالانفعال هو المخاض الذي يسبق الولادة. وكما أن الحبلى لا تعرف ماذا ستلد، كذلك الشاعر. وهو مثلها أيضا لا يهمه إلا الخلاص بالولادة. فالكلام على رسالة الشاعر في المجتمع كلام هراء، بل هراء كل كلام عن غاية للشاعر الأصيل غير عملية الخلق ذاتها. وهذا يكفي، ونتائجه على المجتمع أو الإنسان لا شأن للشاعر به.

لصناعة الشعر أصولها و قواعدها، وما الوزن والقافية بالضرورة منها. أقول بالضرورة لأن بإمكان الشاعر أن يضع قصيدة عظيمة لا وزن لها ولا قافية، وأعني لا وزن لها مفروض سابقا أو قافية يتوكأ عليها الإيقاع بما يستدرج إليه من صنعة وبيان.

إن الكلمة للشاعر رمز أكثر منها معنى. و لذلك كان الشعر حياة اللغة لأنه يحملها من المعاني أكثر مما تحمل في الأذهان ويزاوج بينها وبين شقيقاتها طلبا للتوتر والزخم والانسجام والإيقاع. وكثيرا ما يلجأ الشاعر إلى العنف فيفجر الكلمة لمفاجأة القارئ وإيقاظ إدراكه وشعوره معا وحمله إلى عالم غريب، عالم سحري موعود طالما حلم به من دون أن يلقاه ويتعرف إليه، عالم غير محدود لأنه

عامر بالأمل والشوق إلى حلاوة الحب. فإذا أعطى الشاعر تجربته الشخصية الجزئية مدلولا كليا شاملا، صارت تجربة كل إنسان في كل زمان ومكان.

ما كل من حطم وحدة البيت بشاعر حديث، ولا هو شاعر حديث من اكتفى بتنويع القافية والوزن في القصيدة الواحدة. فالمهم في هذا كله أن يكون تعبيرا عن " عقلية " حديثة تنظر إلى الوجود بمنظار حديث هو خلاصة التجربة الإنسانية في الحياة والفكر كما انتهت إلينا اليوم. فكل شكل شعري جديد لا يصدر عن مضمون جديد، يكون مفتعلا ومصطنعا وكاذبا. وإلى جانب هذا كله يقتضي في صناعة الشعر الحديث مفهوم للقصيدة الحديثة. فما هو مفهوم الشاعر الحديث للقصيدة ؟ إنه الذي يأخذ في الاعتبار الخصائص الآتية :

أولا : تجنب التجريد والتقرير المباشر، كقول المتنبي :

الرأي قبل شجاعة الشجعان   هو أول وهي المحل الثاني

ثانيا : استخدام الإيحاء التاريخي أو الأسطوري أو الفولكلوري، فمن شأن هذا الإيحاء أن يعمق الفكرة ويساعد على إبراز البعد الثالث في القصيدة، وأن يعين الشاعر على التعبير حيث تعجز الكلمات وحدها عن ذلك، وأن يظهر وحدة التجربة الإنسانية وتراكمها عبر التاريخ.

ثالثا : التعبير بالصورة الحية المجسدة لتقريب التجربة الشعرية من الواقع وتحريك مشاعر القارئ كلها، لا عقله فقط. وهو يكسب القصيدة حركة وغنى ويؤنسن الفكرة، أي يجعلها كيانا مستقلا فريدا.

رابعا : التعبير بكلمات وعبارات حية عند الناس، لا في بطون الكتب والقواميس.

خامسا : التعبير عن روح العصر، أي معاناة مشاكل الجيل، أو الأمة، على أنها من مشاكل هذا العصر، وذلك برفعها من نطاقها المحلي إلى النطاق العالمي، أي نطاق كونها مشاكل يعانيها الإنسان الحاضر : صراعه ضد الظلم والطغيان وتوقه إلى الحرية والكرامة.

سادسا : أن يكون نمو القصيدة وتسلسلها عفويا من جهة، وعضويا من جهة أخرى. لذلك كانت القصيدة الحديثة مفككة الأجزاء في الظاهر، ولكنها موحدة أشد التوحيد في الواقع. وهي تتكامل وتنمو في كيان الشاعر وإبان رؤياه، لا في عقله وعلى الورق.

سابعا : أن تفيد القصيدة من الفتوحات السيكولوجية في مجاهل النفس البشرية وأغوارها السحيقة. فبعد هذه الفتوحات المتزايدة يوما بعد يوم، تجلى ما لسيرة الإنسان من علاقة بمراحل نموه منذ الطفولة : خبرته في البيئة حوله واختزان هذه الخبرة وتفاعلها مع المضاعفات الطبيعية أو المكتسبة في كيان الإنسان.

لا أسهل من أن يصبح الشاعر محبوب الجماهير، بمن فيهم المراهقون. فالشعر الموزون المقفى يعير نفسه للتلاعب بعواطف الناس. هكذا كان الشعر العربي فيما مضى، حين كان الصحيفة ومنبر الإعلان والدعاية. ولكن المفهوم الحديث رفع الشعر إلى مستوى الفن الخالص الذي يحدد الرؤيا اللاهوتية و المتافيزيقية ويؤيدها في مواجهة الصناعة الآلية ومجتمعها القائم على الرؤيا المادية للوجود، فصار الشعر للقراءة والتأمل أكثر منه للخطابة وإثارة العواطف والأحاسيس الجماعية. وما حدث هذا التطور اعتباطا، بل استجابة لحاجة الشعر إلى مبرر في هذا العصر الحاضر. كان على الشعر أن

يفلسف ضرورة استمراره، فتنازل عن كونه وسيلة للمعرفة كما كان من هوميروس إلى فاليري وتمسك بكونه الفن الجميل، بل رأس الفنون الجميلة، فيرى رؤى ويحلم أحلاما.

- المراجع –

-

1) ملامح النثر الحديث و فنونه د.عمر الدقاق،د.مُحَمَّد نجيب التلاوي،د.مرا عبد الرحمان مبروك- القاهرة

2) ثورة المعتزل. دراسة في أدب توفيق الحكيم- غالي شكري- مصر1966.

3) الحداثة في الشعر .يوسف الخال- بيروت،ط1978.1.

4) جبران خليل جبران فوزي عطوي- بيروت ، لبنان.1971.

5) لغة الشعر –أحمد يوسف داود- دمشق ،12970.

6) الشعر الحديث بين النظر و التطبيق – د هاشم ياغيط1 بيروت1981.

7) في الشعر العربي المعاصر – د.مُحَمَّد حسين الاعراجي ،ج1 دمشق 1985.

8) الحركات الفكرية و الأدبية في العالم العربي- أ.أبي عوص أحمد- أ.الفاربي عبد اللطيف- الدار البيضاء ،ط5- 1986.

9) شعراء من الجزائر(الحلقة الأولى)صالح خرفي.1969.

10) في التعامل مع النص الأدبي- وديع بن ابراهيم .دار الجنوب للنشر. تونس.

11) معالم جديدة في أدبنا المعاصر- فاضل تامر ، العراق 1975.

12) من المسرح العالمي .برتولت برخت .ترجمة د.عبد الرحمان بدوي.الكويت.1975.

13) الشعر العربي المعاصر .د.عز الدين اسماعيل .دار العودة .بيروت ط3 1981.

14) الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر في مصر.د. عدنان حسين قاسم ط1 ليبيا،1981.

15) دراسات نقدية و نماذج حول بعض قضايا الشعر المعاصر، د. عز الدين منصور بيروت ، لبنان ط1 1985.

16) حركة الشعر الحر في الجزائر- شلتاغ عبود شراد.الجزائر 1985.

17) – تاريخ الأدب الحديث : تطوره، معالمه الكبرى ، مدارسه.د.حامد حنفي داود- د.م.ج. الجزائر1983